غسان خالو

# ميشال شيحا ومسألة " القيم "

في تقاليد بعض القبائل النائية ، بنواحي الارض المهملة ، أن اختفاءً مفاجئا لشخص فيها مدة أيام ثلاثة وأكثر ، يعني أن الغيبَ قد امتصه ، وحقنته الآلهة بأسرار الدنيا . فيلتزم عند العودة بإنقاذ العشيرة من معضلة : نبش بئر سدّها غبار الزمن ، استجلابِ المطر بعد جفاف ، أو معالجة من مرض عاص على السحر . حتى اذا نجح [illegible] ، أو هلت سحابة شتاء ، او تم الشفاء من المرض ، رقص الجمع له حول النار تيمّناً بروح الآلهة فيه ، وحقّ له ذرفَ دموع الفرح لرحلةِ أخصبت في الناس فرحا . واذا فشل كشف أن غيابه كان نزوة ، فيُرذل وقد يُنبذ حتى الموت .

تراها كانت حكاية ميشال شيحا مع قيم الانسان ؟

بدت عودته ، سنة ١٩١٩ ، غداة الحرب الاولى ، رجوعَ العازم على اجتراح أعجوبة الانقاذ لأهلٍ ناءت بهم الأرض وأهملتهم السماء . وكان يحلم لهم برقصةِ النصر ، ولنفسه بدمع الفرح .

فكتب الكثير . ولما سأله ميشال أسمر سنة ١٩٤٨، كما سأل آخرين ، "كيف نعمّر البيت اللبناني "، آثر البدء بالكلام على " القيم " في محاضرة مستفيضة بالندوة اللبنانية . فلم ينظر في مطلقات لا هوّية لها ، بل في مبادىءِ نهوضِ الانسانية ونهوضِ وطنه .

ماذا لو وقف شيحا اليوم فينا واعظا ؟

ثلاثون سنة ، يقول ، فكّرت خلالها ، عَبر آلاف الصفحات ، في ما يبني عالم الانسان قاطبة ، وبيتنا خصوصا ، فانتهيت لكم الى قواعد خمس . هل حفظتموها وجعلتموها دروبا لمسالككم ؟

القاعدة الاولى : صارت القيم ، وهي محورية في تاريخ الثقافة ، لبّ مسائل هذا العصر ، بعد انعكاس مستجدات الكشف العلمي في الفهم والسلوك . فهل يكون الإيغال في تنويع ملذات الحس ، مثلا ، أجدى من مسألة المصير؟ اذا رأى الجاهل في كلمة " قيمة " دلالةً تقديرية للشراء والبيع والممارسة العملية ، فإن المتسامي في الثقافة يرى فيها دربا نحو روحنة للحياة ، تعالياً يجاوز شيئيّةَ الحس واللذة ، فغوصاً في الينابيع .

فهل عقلتم قيم الحياة ، وروحنتم وطنكم ببهاءاتها وقد استرددتموه منذ سبعين سنة طيفا لفينيقيا ؟

القاعدة الثانية : اذا لم تصبح القيم أفعالاً صارت ألفاظا بلا معنى . فيكون تحقيقها في المسالك المعيشية ، كما في المعرفة المنطقية والروحية [illegible]

والفن والدين

والقيمة الحقيقية للإنسان ، تقريراً لنوع الحياة ومستواها ، عيشاً اقتصاديا يجتنب إغراء المظاهر وشراهة الربح السريع ، كما يجتنب فوضى الهدنسة ، واقتصاراً مرتبة الانسان على ما يملك بدون احتكام الى تألق فعله وجدانيا . هذا الى اتقاء تحليل كل الاشياء للبيع ، خصوصا أشياءً لنا أساسية كأرضنا التي يشتهيها مال كل غريب . فبين قيم الاقتصاد ، والعيش تحديدا ، وسائر قيم الفكر بحثا عن الخير والمعرفة والجمال ، تداخلٌ يوجدن الدنيا ، أو هوّة تفرّق بين ضحالة المال – الوسيلة ، وبهاء الروح التي تصوغ عظمة الانسان .فهنا ، أكثر من أي بلاد أخرى ، ينبغي ممارسة السياسة خارج كل مقاييس التجارة .

هل وجدنتم الانسان – القيمة في أذهانكم ، أم الله ما فتيء وسيلة ، متاعا ، كما كان أيام العثمانيين ؟ أفما زال كل شيء عندكم مُباحاً في فنون البيع والشراء ؟

القاعدة الثالثة : الانسان محور العالم ، ومحور كل تدبير . صيغت الحكمة من أجله ، كما العلم والفن وكل أصناف التعالي الفكري ، قدرةً في التجريد والحكم ، التزاماً بالفضيلة ، وجسارةً في قول الحق وتنفيذه ... الخ على أن يستمر صانع التحفة أهمّ من تحفته كما افلاطون أهمّ من حواراته ، وكما سائر المتألقين ، فيقتحم حضورهم الأجيال ويصوغون للانسان ، كل انسان ، عظمة هويةٍ في دنيا الجوامد والأحياء غير العاقلة ، جاعلين منه شبه اله . لكنّ مكتشفات العلم أغرت أخيلةَ البشر ونزواتهم ، عَبر الذرة وآلات الدمار وسواها ، فبدأ سلوك البشر يتَحيوَنُ منزلقين صوب نسيان ينابيعهم الروحية .

أين أنتم من حكمة صيغت لأجل كل منكم ، ومن عظمة حضور علمتكم أن تتأنسنوا ، وأن تستهدفوا إرثاً إبداعيا يخترق خلايا أحفادكم ، وفرادةً تستبقيكم رواداً على مطل هذا الشرق ؟

القاعدة الرابعة : اذا استحال على البشر ، كما علينا ، اتفاقٌ على وحدة التعريف بالمثلث الغائي لممارسة القيم ، أي الحق والخير والجمال ، في ما نشهده من تنوع النظم السياسية والقوانين الحقوقية وتعدد الاديان ، فلن تضيعَ البشرية في صراع النسبيات ولن تضيع ، لأن غوصاً في الاعماق يكشف جوهرية " القانون الطبيعي " الذي يحرّك اليقظة الضميرية في سبيل سلوكٍ سوي يبني استثنائية ألفة الانسان مع الانسان . وهو ناموس فطري شامل وثابت . فمهما أوغلنا في تناقضاتنا ، ستستمر الطبيعة فينا خيّرة ، اذ يُرينا هذا القانون لمعةَ الحق فنتآلف ، ان شئنا نحن ذلك وسنشاؤه . واليها هذه اللمعةِ كان يشير باسكال عندما لاحظ أن حقا قبل جبال البيرينه يصبح باطلا بعدها ، وإياها نعني عندما نعرف أننا ، نحن معشرَ اللبنانيين ، باسم الحق نختلف على الحق . فتبقى رسولية الخير ، في تنوع قيمنا الروحية الدينية ، ملتقًى بهيًا لنا اجمعين .

فهل باسم الحق فعلاً اختلفتم كي تستكينوا في الحق الذي يجمع ؟ وهل فقهتم معنى رسولية الخير في تعدد توجهاتكم الدينية ؟ وماذا استبقيتم لسعادتكم من تناحر لا دنيا لكم فيه ولا سماء ؟

القاعدة الخامسة : " ... عاشت هذه البلاد دائما في خطر ، وهي مدعوة كي تستمر هكذا ..." . فوحده انشداد الناس الدائم نحو المثل الأخلاقية ، عبر التطبيق الدقيق لمفهوم المواطنية ، وعبر اعتبار ذات الوطن غاية المسالك ومحركاً أمامياً جاذبا نحو تألق الزمان الآتي ، كما تحرك البوصلة نحو نجمة القطب ، وحده هذا الانشداد يقيهم المهاوي الدائمة . فاذا لم تؤسسوا حياتكم على هذه القواعد ، واذا لم تتحملوا مسؤولية الاستمرار في الاندفاع الإرادي نحو ضوابط الحق ، فلن يكون لكم عذر اذا صار لبنان " أرضا تكره البشر ".

هل كنتم فعلا خلال سبعين سنة بشراً منشدين الى هذه القواعد الخمس ، الى نماذج مثالية في الحق، تحصن لكم بلادا ولدت متأرجحة فوق صهوة الريح ؟ اذا توكلتم على عامل الزمن الذي يحل لكم المعضلات ، وهو ما يبدو أنكم اعتمدتموه ، فعبثا تتوكلون ، لأن الخلاص مرهون بكم أنتم وحدكم ، بشراً يمتطون صهوة العزيمة ، ولذة النضال من أجل قضية . القيم ... القيم ... بها تتأنسن الارض ، وإلا ارتدت الى بداياتها مساحة أدغال وحشية .

* * *

عشت منتظرا ، ومت مستمرا في انتظار الساعة التي ترقصون فيها فرحا . فرقصتم ست عشرة سنة حول الاجساد المشوية ، فوق أرض تتنفس ضغينة . تكرمونني في صحفكم وندواتكم كأنكم تتقيأون عقدة ذنبكم ، ساخرين ، من حيث لا تدرون ، مما اجترحته لكم ، فتقلبون السحر على الساحر ، وتتبذونني كأنني اقترفت اثما ...

عشرات الآلاف ممن رفستموهم الى الأبدية يرقصون معي ، فأغسل أجسادهم بدموع الفاجعة .

تريدون آخر أمثولة في الحب ، قيمة القيم ؟

مهما جرحتم بلبنان وجعلتموه شبه حقيقة ، أعترف ، أن الله ، الذي اكتفى لكم بأن خلق أرضكم على صورة سمائه ومثالها ، جعلنا قادرين ، نحن جحافل ضحاياكم في الجنة ، أن نحلم لكم بالسعادة ، وأن نعكس في حبنا للبنان حلم الجنة بالجنة .

* * *

عظة رجل الأبدية هذا أسمعتنا صوت الوطن الجريح . ولانه وأمثاله فهموا لبنان مجموعة قيم نظرية ، لم تنزرع تربوياً في الناشئة ، فلم تصبح عاملا ديناميا في الايديولوجية السياسية الجماعية ، صارت البلاد لوحة فنية ، فتعامل الكثيرون معها حلما ، فضلا عمّن تعامل معها سلعة ، حتى بات لبنان شهوة ... لاجل هذه الاسباب استفاقوا عليه يوما ينزف حتى الموت . فتعلّمنا ، نحن تلاميذهم ، كيف نتعامل مع الاحلام ، وكيف لا تكون [redacted] القيم التي

غسان خالد
١٥ - ٢ - ١٩٩٧

[redacted] نلوع الحياة السوية [redacted] إلا مرآة جماعية [redacted]

[redacted] فقدان الثقة وتراجع الحس الجتمعي على إيقاع الطوباوية.